

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190078

UNIVERSAL
LIBRARY

المكتبة الاهلية في بيروت

سيف الدولة

رواية تاريخية غرامية

جرت وقائعها في عهد الامير سيف الدولة بن حمدان
صاحب حلب

تأليف

الكاتب المستشرق الافرنسي المعروف

اندره رابنسن

تعريب

اسكندر رباشي : صاحب جريدة « الصحافي التائه »

مطبعة المصباح * بيروت ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م

لم يحمل سيد الرمح مثله ، ولم يخلق الله
كالبراق . اجمل خيول نجد
« اندره دايفنس »



هذه سيرة ابي الحسن سيف الدولة ممدوح المتني ، جاء بها
مستشرق افرنسي ، فكان اميناً على الحقيقة التاريخية ، والاسماء
العربية لابناء المضارب ، فعربت كتابه حرفاً حرفاً ، وكنت
اميناً في التعريب ، كما كان المؤلف اميناً في التاريخ ،
وأدهشني غرام سيف بيلتدا ، وغرام بيلتدا بسيف الدولة .
فوضعت في تعريب مشاهد ذلك الغرام الشعري الشديد ،
ما وضعه المؤلف من عبارات الاعجاب والوصف المستكمل
فاذا اردت ايها الصديق ان تتعرف الى مجد عربي خالد ،
والي امير فاق بسطوته وظرفه وادبه كل امير ، والى مليكة
فاقت بغرامها وجمالها ونبالتها كل النساء ، فاقرأ حكاية سيف
الدولة امير حلب وملك سوريا

« المعرب »

من هو سيف الدولة ؟

ولد سنة ٢٠٢ هـ - ١١٥ م ، وتوفي سنة ٢٥٦ هـ - ٩٦٦ م

هو ابو الحسن علي بن ابي الهيجاء الملقب بسيف الدولة ، مؤسس دولة بني حمدان ، التي دامت في الموصل ، ونصيبين ، وانطاكية ، وديار بكر ، وحلب ، ودمشق من سنة ٢٩٣ هـ - ٩٥٠ م الى سنة ٤٠٢ هـ - ١٠١١ م

كان فارساً مغواراً ، وقائداً محنكاً ، وشاعراً بليغاً ، ونقاداً محققاً ، حتى قيل انه لم يجتمع بباب احد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر

وقد اشتهر بغزواته الكثيرة ، واعماله الحربية العظيمة ، وابلاؤه في الاعداء ، وخصوصاً الروم ، حتى دون له التاريخ وقائع مجيدة وحوادث هائلة ، لا يزول ذكرها على الدهر ، حتى انهم جمعوا من الغبار الذي كان ياصق بشيابه في حروبه لبننة

بقدر الكف ، واوصى ان يوضع خده عليها في لحده ، فنفذت
وصيته ، والله در المثنبي الشاعر المشهور حيث قال فيه :

ان كان قد ملك القلوب فانه

ملك الزمان بأرضه وسمائه

الشمسُ من حسأدهِ والنصرُ من

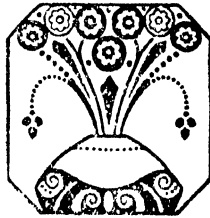
قرنائه ، والسيف من اسمائه

أبن الثلاثة من ثلاث خلاله :

من حسنه وإبائه وقضائه

مضت الدهور وما اتينَ بمثله

ولقد أتى ، فمعجزن عن نظرائه



صبوة ابي الحسن

كلب رأكض، خير من اسد رابض
(مثل عربي)

« ما من شيء في الكون يا اميري الجميل يفتن النساء
كحكايات الحب والحرب ، وقد ذكرت الان حكاية عجيبة
ساحرة تذهب عنك الضجر ، فاسمع حكاية حياة سيف الدولة
الذي كان اميراً على حلب ، التي لا شبيه لها ؛ فلم يعش رجل
ببنالته بين الاسلام ودعاة النبي « صلى الله عليه وسلم »
وُلد في الموصل حيث كان والده الملقب بالخليفة المقتدر
حاكماً فدعي ابو الحسن

وهو متحدر من اسرة حمدان ، وهو وحده في مجده
استطاع ان يزيد اجداده العظام ، وقد حيته عند ولادته
البشائر السعيدة التي تلقاها الناس بفرح وسرور ، ويقولون
انه عندما وضعت امه ورأى النور تغنت العصافير في الدوحة
اغاني « جديدة » وكان اول صوت سمعته اذناه زقزقة البلابل
وعندما ابتداء بالمشي عرف الناس انه سيكون الاكثر
جمالاً بين ابناء حمدان ، وكان وجهه يتسم كما يتسم الياسمين

في الربيع وبرقت عيناه بنور النجوم ، وامتلاً قلب والدته
انتعاشاً وكانت ابتسامته تفتتح على الناس كما تفتتح براعيتي
الازهار عند الصباح

وكان ذكاؤه حاداً ومستغرباً ، لهذا وضعه والده بين
أيدي حكما، الموصل العظما ، الذين لقنوه العلوم والشعر ،
وكان يريد ان يجعله عالماً يفوق جميع علماء بلاطه ، انما الله
وحده يعرف ما يعرف . وماقدر يكون !!

واخذ ابو الحسن ينجل بارتجالياته - وهو لا يزال في
الهدائة - اكثر الشعراء فناً ورقة ، ومع انه كان متعشقا
لنفحات الشعر فانه كان ايضاً يرى نفسه مجتذباً نحو العاب
اكثر رجولية من هذه

ففي الصيد والمصارعة ولعب الرماح كان دوماً الاول
يقتصر على جميع الذين يجارونه وهم من عمره
ويجب الخيول المطهمة التي يشبه ذيلها الذي ذهبته .
الشموس دروعاً لماعة

ويلذ له تربية الصقر والباز كما يلذ للجببة وصال حبيبتها
وعندما يطارد في الرمال الفريسة التي تجري امامه ضارباً
بمفخذه القويتين متن مر كوبه السريع يشمر ينشوة تطير به
في الفضاء فينسى العالم وما فيه

وكم كان مرآه جميلاً عند المساء وهو راجع على رأس

رجاله الى المدينة وقدار تدى اجمل واغنى واثن الملابس وتدلّت
الطيور والنزلان التي اعطادها على سروج الخيول
فكانت عندئذ تقف الفتيات الاكثر نفوراً على اعتاب
بيوتهن ويرفعن عيونهن اليه فتزدد خدودهن الزنبقية دماً
من حمرة الحجل والبذة

فانه كان يزرع في طريقه عطور الشهوات
وخيالات الاحلام
وتد عرف الخليفة المقتدر ان ولده خلق للحب وللحرب
فكان سعيداً لان له هذا الولد

انما عند المساء بعد ان يسدل الليل ستائره المنعشة على
العالمين كان ابو الحسن يذهب وحده الى الحدائق الغناء فيهم
بين الاريح الكثيف المتصاعد من الزهور الناعسة بالقرب
من البحيرات حيث تتغني « الفوارات » والعيون
وهناك كان ينصت لانشودة الارض الهادئة
وينظم الشعر

ولكن الفجر كان يجده دوماً على صهوة جواده يجري
على رأس رجاله مالئاً الفضاء من هتافاته قافراً في الهواء النقي
المنعش وتأثها في صوته وقوته وغنياً في جماله ، ونبيلاً في
هيئته وفتاناً في ملاحه وجهه وجسمه حتى انه كان يخيل
لتجار القوافل في الصحراء عند رؤيته انه الملاك جبريل يسير

على رأس طغمة من ملائكته

وحصل غزو في ذلك الزمن على بعض القبائل المعادية ،
التي كانت تعيش على طرقات الصحراء فساداً وتجي فدية عن
القوافل دون ان تحترم حجاج بيت الله الحرام

ولما عرف ابو الحسن بجلية الامر ذهب لايه وقال له :

- يا مولاي « كلب يركض خير من اسد رابض » فاني

اريد الذهاب للحرب فقد اختنقت في المدينة وانا احب الصحراء
وان ابيت الليالي في ظلال الخيام ، واسكر من ضجيج الرماح
وقرقة نعال الخيول ، وانا عطشان للهواء الطلق وللمعارك
الدامية .

فنظر الحاكم الشيخ الى ولده باعتزاز ولكن قليلاً من

الكآبة لامست صوته عندما قال له :

- اذهب يا ولدي وليحفظك الرحمن واحرص جيداً ان

تكذب على دم اجدادك ، فاسرسلك غداً لاخيك وهو
يقودك للغزو

فوضع ابو الحسن ركبته على الارض وقبل ثوب والده

واعترته موجة من الفرح كادت تطير به ، وأحس كأن

سوطاً دامياً يجرح صدره وعندما وقف ظن ان العالم ملك له

ودخلت افراح فردوس المؤمنين باجمعها الى قلبه

فقضى يومه بطوله قافزاً ضاحكاً راكضاً كغزال طليق

بي فضاء الله

وذهب لاصدقائه فاعلمهم بامرهم السامي ، واخبر به كل من رآه في سبيله من العبيد للبنات لتجار الاسواق لضباط القصر ، وقد كان فرحه عظيما حتى انه عند المساء نسي « صليحة » الجميلة التي احبها بين النساء والتي بكت طويلا عندما عرفت انه مسافر في الغد

وقد تفتحت يومذاك امامه ابواب حياته الحقيقية ، فقد اوشك ان يسير على طريق المجد

وقاده ولده في اليوم الثاني الى اخيه ناصر الذي كان يستعد للقيام بغزو جديد ، وكان هذا يفوق سيفاً بخمس عشرة سنة من العمر ، وقد ذاعت شهرة بطولته بين القبائل وخافه الناس .

ولما علمه والده بجمالية امر اخيه ابي الحسن هز رأسه استخفافاً وقال :

- هل تعلم يا ابا الحسن اننا سنخاطر بالحياة ونجتاز الصحراء ذات الرمال المتحركة ؟ هل تعرف ان من الواجب علينا السهر ليلا ونهاراً خوفاً من الاعداء ومن الوحوش ، واننا سنلقي عذاب العطش ونصوم اكثر من صوم رمضان وربما متنا جوعاً ؟ وهل تعرف ان اعداءنا هم فوارس يربون ، وابطال محتالون يخرجون فجأة من الارض فينصبون

الاشراك ويعذبون الاسرى ؟

فاجاب ابو الحسن - اعرف كل ذلك وانا اعيش منذ زمن
طويل بعيداً عن المعارك ، . اخي ناصر انا تبع لك وطائع
لارادتك كاحد الرعايا البسطاء وانا حاذق بضرب الرماح ،
ولا يرعبني زئير الاسود

فقال ناصر - ليكن ما تريد يا اخي ، وليتم المقدر عليك

فاحنى ابو الحسن رأسه امام الامير ناصر وذهب الى دار
الاسلحة حيث لبس قميصاً من الفولاذ مغطاة من الخارج بقماش
ناعم من الحرير وتمنطق بخنجر يلمع كالبرق وبسيف محدودب
صقيل ، وتقبع بجوذة وضاحة وارتدى برنساً ابيض
كشاح الجبل

وقاده والده بعد ذلك الى اسطبلاته فانتقى حصاناً هو
اجمل خيول نجد مسرجاً بالحرير والفضة ، فركبه وطاف المدينة
من اولها لاخرها ذاهباً لسلام على والدته التي استقبلته بافتخار
وحزن ، وقبلته طويلاً وهي تمسك عبراتها ومن بعد ذلك
وضعت تحت حماية الله القدير

ولكن لا ترتجفي ايتها الام الحزينة ولا تخافي فان ولدك
ابا الحسن لا يطير من بين ذراعيك الا ليضمه المجد بين
ذراعيه المعطرين

وفي صباح ذات يوم ، عند ابتسامة الصباح ، وتحت رعاية

اخيه ناصر مشى ابو الحسن الى الصحراء يحيط به رهط من كبار القواد ، على محياهم سمات الشرف والنبيل والبطولة ووقف اهالي الموصل على طريق الامير وهو يسير في طليعة رجاله يتأملون بصبوته وجماله الفتان ويطلبون له السعادة والحياة الطويلة

ولم يكذب ابو الحسن على دم اجداده ، فقد كان في المعارك الاولى التي اثارها ما يجب ان يكون ، شجاعاً حتى الجنون وكرماً حتى منتهى الكرم

احاط الاعداء فسقى رمال الصحراء من دمانهم ، ولم تعرف يده التعب وهي حاملة سيفه الصقيل اللماع وعندما يأتي الليل ، لم يكن على وجه البسيطة وامام نجوم السماء رجل يسهر على جنده ويجرسهم ويرقب اعدائهم مثل ابي الحسن

فابتدع الحيل للحرب ، وفي كل يوم كان يستيقظ في وسط الرجال اشد بأساً واكثر حذاقة من الامس ، وكان اخوه ناصر يشعر ان قلبه يتلوى فرحاً واعتزازاً لرأى اخيه شجاعاً وسيداً في فن الحروب - مع حداثة سنه

وعندما رجع سيف الى الموصل عرف الناس ان الله اعطى بطلاً جديداً للاسلام ، لا يقل بأساً وقوة عن ابطاله السالفين . وابتدأ ابو الحسن منذ ذلك اليوم يزداد منعة وفخراً

وانتصارات ، فاصبح اسمه رعباً وهولاً للنهابين وقطاع السبل
في الصحراء .

ولم تجر موقعة كبيرة ولم يقع غزو معروف الا وكان
الامير سيف على رأسهما وهو عربون الانتصار

ولم يكن في شؤون الحب والغرام اقل نشاطاً وهمة مما هو
في الحرب والصدام ، وكثيراً ما كانت الاسيرات اللواتي كان
يكسبهن بغزواته يخرجن من بين ذراعيه ناسيات الاسر
والاستعباد وسعيدات فرحات

وكان كذلك بعد المعارك يرتاح لقصص الشعراء
ومستظرفات الادباء

وكان بين موقعتين عندما تقف قرعة السيوف والرماح
يتمدد بكل رخاء على فراش من الارجوان الناعم فيسكر من
نغمات الاعواد واغاني الراقصات الفاتنات ، وترنيمات القصائد
والاناشيد

وهكذا كان ابو الحسن بن حمدان يزهو يوماً عن آخر في
خنون الحرب والغرام والشعر



حلب الشهباء

قال لي المجد (لا تستطيع ان تمتلكني الا اذا
امتكتك العالم) « قول اعرابي »

وحملت الافواه صيت ابا الحسن من مكان الى مكان
بعيداً جداً عن الموصل ، وقد اتصل بالخليفة خبر اعماله الباسلة
بقيادة اخيه ناصر فطابه هذا الي بلاطه ، فسار البطل الفتى
صبيحة ذات يوم جميل الى بغداد الحرة ذات القيب الوردية
فاستقبله فيها اهل البلاط بشرف كبير واقام له الامراء الافراح
والاعياد ولم يكن ابو الحسن قد رأى قبل ذلك عظمة كمثل
عظمة بغداد من قصور شاهقة مزخرفة وميادين شاسعة
مزر كشة وقاعات من الارجوان الاحمر والمرمر بلون الثلج
فرشت في ارضها السجادات الفاخرة وازدانت نوافذها وموائد
بالآنية الذهبية والفضية المحلاة بالآلئى ، والجواهر واستنضات
سقوفها بالانوار الساطعة العديدة كأنها الوف والوف النجوم
ونزلت على ابوابها الستائر التي رسم عليها المصورون حكايات
الحروب واعمال البطولة ومشاهد الحب والنرام
وقد انشدت في اواسطها النوافير اغاني المياه السامية
وتقطرت منها العجات كأنها عقود لؤلؤية ، جائلة حولها محيطاً

رطباً سكوتاً يدعو للشعر والوصال

فأعجب أبو الحسن بما رأى وأقسم وهو في وسط كل هذه
العجائب يتأمل بها أنه سيملك القوة والثروة ليعيش كما يعيش
الخليفة في بغداد وبقصر فخم كقصره وفي أعياد عظيمة
مستديمة ملأى من الغرائب ترقص فيها عاريات أجمل بنات
حوا من عصافير الجنة وحورياتها

وأعطاه الخليفة قيادة أحد جيوشه ، فخافه الناس وعاش
في قصر أمير المؤمنين معززا مكرما يطيعه الناس عند أقل
إشارة منه واهدى إليه رجال البلاط فرقة من عبيد أفريقيا
تخدمه وتقدم له في كوؤس البلور الصافي المشروبات النادرة
وعلى صحون من الذهب الخالص الأثار المكلمة بالشاج

وجاءوه بنساء فتيات جميلات وفاتنات ليغسلن جسمه
بالند والاقحوان ، وليلبسنه الحرائر الناعمة التي كانت القوافل
تأتي بها من الشام وبعلبك والبصرة ، وليلدكن منكبیه وفخذيہ
وردفيه وظهره بايديهن البلورية اللؤلؤية ذات الأصابع المخضبة
بالحناء ؛ وليرقصن امامه عاريات راقصات تهتز بها اجسادهن
الناصعة البياض كما يهتز العصفور بلله القطر

ومع ذلك فإنه لم يكن يسترسل كثيراً للملذات عندما
يشعر أن هناك خطراً يهدد المملكة فكان يقوم كالمجنون
فيسرع على رأس جيشه الى الأعداء فيذبجهم ويجعلهم طعمة

لوحوش الفلاة ويرجع حاملاً اعلام النصر كما ترجع الاشجار
الى ازدهارها فى فصل الازهار ..

ففى كل يوم كان يزداد حب الرعية له ، لجماله الفتان
ولبطواته النادرة ولذكائه المفرط

ومع ذلك فانه كان يتاسف - وهو فى كل هذه العظمة
على فراق اخيه ناصر الذي كان يحبه ويحترمه

ونظر الخليفة الى اعمال ابى الحسن العظيمة فجعله امير أعلى
واسط ، ومن ثم بعد اعمال اعظم جعلته محترماً عند امير المؤمنين
عينه حاكماً على ديار بكر حيث اظهر حكمة ادارية عالية وحيث
حارب الاعجام فتغلب عليهم وجعلهم يخشون سطوته

وكان يسير من ظفر الى ظفر يحيط برأسه اكليل من
شعاع الشمس ، واجدا ايها حل صداقات امينة واعداء اشداء
للتغلب عليهم

واخيراً جعله الخليفة حاكماً على (ميافارقين) حيث ينام
اجداده العظام فى مدافنهم بكل جلال وابهة ، وكان يومئذ
قد ناهز السابعة والعشرين من عمره ، وقد بلغ من الشهرة شأواً
بعيداً فتحدث به الركبان واحترمه الناس اكثر من احترامهم
لمشايخ الدين والعلم

ومع كل ما وصل اليه من العظمة والجاه فانه كان يحلم
ايضاً باكثر واسمى من ذلك ، فهو يجب الاستقلال والمعيشة

الحرّة الطليقة في وسط الصحراء حيث لم يكن له خصوم الا
الاسود ، وكثيرا ما كان يشعر وهو في قصره بما يفارقين بثقل
سيطرة الخليفة عليه ، فكان يتمنى ان يكون عنده مملكة
هو وحده اميرها

مملكة يفتتحها بسيفه المنتصر لانه كان من الذين لا
يستطيع احد في العالم مهاهما كان عظيما ان يتسيطر عليه
وقد ضجر من معيشة البلاط الملكية والاميرية وكان
يتمنى ان يجارب بذاته دون ان يكون له غير ارادته الخاصة جاعلا
لبلاده ممتلكات جديدة وذلك تحت سنابك خيله وبقوة ساعده
وهو يقول « لا تزال اراض واسعة في العالم يلزم امتلاكها »
وكان محاطاً بعدد عديد من الفوارس الشجعان ، الذين لا
يقفون عند شيء في سبيل تحقيق اماني سيدهم ، الذي كان
يقول بنفسه دائما « لماذا لا اسير عند الصباح العذب وانا عطشان
للأعمال العظيمة فامتلك البرين »

وكان يردد بكل توفد وحب وهو بالقرب من الينابيع
العذبة قول الشاعر القائل :

« جبت العالم على حصاني المطهم ، زارعا في كل مكان
الرعب والخوف ، وقطعت الانهر والجبال للمقتل والكسب والذمة »
وكان هذا الاسد قد ضجر من معيشة التمدد على
الاطالس بين عشرات الجواري الفاتنات ، ولم يكن ينتظر للوثوب

غير الفرصة المناسبة فيقوم الي الصحراء مفتشاً عن فرسته
مسمماً السماء زئير غضبه

وكانت خيوله السوداء كالليل تضرب بجوافرها ارض
مرابطها فتحفرها وقد صدأت اسلحته في متونها

- قم الي الحرب يا امير الفتيان وشيخ شبابهم ، قم الي
النصر ، الا تشعر ان الارض تضيق بك
ونادى يوماً فوارسه وقال لهم :

« لم تتعوا بعد من الاعياد والنساء ؟ »

انتم خلقتم للمعارك بين الرمال الارجوانية ، ولافتتاح
البلدان الجديدة ، لا للتمدد تحت اقدام الجميلات ؟

« الا تأسفون وانتم سكارى من عطر النساء على
فقدانكم نور الشمس المحرقة ، وانتم اولاد البادية التائهون
في بلاد الله ،

« جميع القيب واطئة تحت رؤوسكم ما عدا قبة السماء ،
وحميع السجادات متراخية على اقدامكم ما عدا رمال الصحراء ،
انتم خلقتم لتعيشوا بين عواصف الغبار حيثما يكون كل
منكم جسماً واحداً مع حصانه

فتذكروا نشوة الحرب والابتسامة الصفراء على ثغر العدو
المضرج بدمائه ، ورائحة دماء الكفار العذبة للشم
تذكروا معاركنا في الصحراء والجيال وجنون خيولنا في

للامصار .

نحن ننام اليوم ايها الرفاق بين العطور والازهار

ولكن من يريد ان يتبعني لامتلاك ممالك العالم فليأت
سنمشي ونجعل الارض ترتجف تحت سنايك خيولنا ، سنسير
في نور الشمس فنمتلك الدساكر والحاضرة والمدن والممالك
ونسبي النساء الاكثر جمالا من حوريات الجنان ، فنحملهن
وراء ظهورنا على الخيول ونجعل قبالاتنا على ثغورهن اشهى
من الدم الذي نسفكه لامتلاكهن :

فلنعش احراراً تحت الخيمة التي تحررها الرياح ، من ان
نعيش مستعبدين في القصور الشاهقة الفخمة

اننى ساجعلكم اقوى من السحرة

اتبعوني واتركوا الغير كم المحافظة على القصور

تعالوا لنمتلك الشمس والقمر

فاستقبل السامعون كلام اميرهم الجميل بجاس لا مزيد

له واعتلى الهتاف وبرقت نصول السيوف فوق الرؤوس -

لبيك لبيك - قالوا للامير فنحن طوع يدك

وراحوا بعد ذلك يجوبون المدينة التي ضجت لمرآهم

ولقرعة اسلحتهم وصهيل خيولهم ، حاملين للاهلين من فم الى

فم البشرى العظيمة وداعين الشجعان الى الانضمام اليهم لامتلاك

الشمس والقمر

فكنت تراهم العين براءة ، والقدم ثابتة والرأس عزيزاً
:شاحناً ، يقفزون من مكان الى مكان كأنهم من سكان الجن
تظهر على ملاحظهم دلائل الظفر والانتصار كأنهم حققوا الحلم
وامتلكوا ممالك الارض التي وعدهم بها اميرهم الفتان

واصبحوا بعد ثلاثة أيام الوفاً والوفاء ، وباجمع من المفتشين
على الحادثات الراغبين بها . صيادي الامل المتعلقين بأذياله ،
وقد كان فرحهم عظيماً بالذهاب للحرب لاكتساح المدن
والدساكر تحت قيادة اميرهم الجميل الذي قادهم مراراً قبل
ذلك للنصر والكسب

وكان ابو الحسن في خلال ذلك يفكر ، وهو عارف اية
حياة وراحة سيترك كما يتوغل في الجهول وهو عارف ايضاً انه
يرمي بنفسه في بحر الصدفة ولكن فرحه عندما يفكر بالكسب
والغنيمه ، والمسير حراً طليقاً في الصحراء وبالليالي التي سيقضيها
مفتراً الغبراء وماتحفاً السماء ونجومها كان يقتل فيه التفكير
ويجعله يطير بفكره الى المسافات الشاسعة ليمتلكها

انما كان يتساءل اية بلاد يغزو واي قطر يكتسح ؟؟
انما العجم والجزيرة لم يكونا يستفزان اطماعه ، بل كان
يتمنى ان ينزل الى الساحل ويتوغل في سورية الغنية حيث
المدن المزدهرة ، حمص والشام وحلب التي كانت تبان لناظريه
كامرأة فتانة تحمل بين ذراعيها الغرام واللالى .

كأمرأة فتانة تحمل بين ذراعيها الغرام واللاآلى .

هي سوريا التي استدعته ، سوريا ذات السهل الفسيح
الشاسع التي تحميها جبال لبنان ، الجاعة فكرة امتلاكها مستحيلة
وكانت سوريا يومذاك بين يدي اخشيد مصر الذي كان
قد امتلكها ناكراً سلطة الخليفة عليها

وقال الامير سيف بنفسه انه اذا امتلك سوريا وجعلها
مملكة مستقلة وهي اغنى الممالك ، ارجع هذه القطعة المفصولة
عن بلاد الاسلام ادبياً الى الخليفة امير المؤمنين
وكان في ذلك ايضاً المخاطرة بالموت ، فقد ينكسر الامير
الفتان في الموقعة الاولى

ولكنه لم يفكر دقيقة بذاك بل ان هاجساً واحداً كان
لا يفارقه وهو السير الى الحرب وانقاذ النفس من خمول
القصور وعبادة الجميلات .

ومضى اسبوع كامل على ذلك وتهاياً كل شيء للسير ،
فالوف من المحاربين والخيول والجمال والحيم والبغال والاسلحة
كانت قد تجمعت في ميافارقين وهي تنتظر يوم الطعان
والنساء الجميلات الصبيات ذوات الاصوات الشجية
والعيون الخلابة والذوائب الجميلة ، تجتمعن ايضاً ، واستعددين
لمرافقة الامير

فانهن كياتبعن الامير الفتان لم يفكرن ، لا بالتعب ولا

بدا الخطر ولا بجر الصحراء ، بل سرن كما ارحت لهن قلوبهن
قلوبهن الرقيقة التي لم تكن تعرف غير الشعر والحب

وذات ليلة طلب الامير قواده وامرهيم ان يكونوا مع
الجيش عند الصباح على استعداد للمسير وقال لهم
- انمش على سوريا فتمتلك قوة واقتداراً حلب الشهباء
التي يحكمها اخشيد مصر ، فنجعلها عاصمتنا ونجعلها جميلة
حتى يتحدث بها الركبان ،

ومشى الفرسان للصحراء والامير في مقدمتهم بعباءته
البيضاء وعقاله الابيض ذي الطرات الذهبية كأنه نجمة تتألق
تتقود المحاربين الى مقدرات جديدة وسعيدة

وكان راكباً حصاناً مطهاً دقيق الخاصرة وعصي الساق
وكانت كل خطوة من هذا الجواد يطأها نحو الصحراء قد
اصبحت ملك الامير

وقد تبعته جماهير لا عدد لها اختفت في غيوم كثيفة من
الرمال لا يرى منها من وقت لآخر غير بريق اسلحتها الفضية
مشوا ليالياً واياماً دون تعب ولا تذمر ، لا يستريحون
على مجاري المياه وينابيع الواحات غير القليل ، ويشرق عليهم
كل صباح وهم بين الرمال يكابدون حر الهوجاء وتتقطر من
اجسامهم نقاط العرق كأنها من الماء الساخن ، وقد ادمت
قلوبهم حرارة الشمس واحرقت اكبادهم عطشاً

ولكن الامل كان يدفع بالاحياء الى الامام ويطير بهم على اجنحته الوردية فبسيرون دوماً الى نحو الافق البعيد

ووصلوا اخيراً الى سفح الجبل حيث الرياض والمياه ، ومن ثم بعد ان ارتووا واستراحوا وتسلقوا القمم العالية الى غابات الصنوبر السوداء والسنديان الدائم الاخضرار حيث كانت تجري جداول المياه الفضية العذبة وغسلوا قلوبهم المحترقة بسلسبيلها اللجيني ، واستمعوا خريرها الشعري فامتلات احشائهم برودة وحياة سمح لهم الامير بالراحة فافترشوا العشب وناموا ملء عيونهم في انتظار يوم البطولة القريب .

وبعد ذلك بيومين نزلوا السفح المعاكس للجبل حيث كانت تتراوى لهم في الافق البعيد مدينة مزدهرة زاد الطمع في امتلاكها من هممتهم وقد بان لهم بما ذنبا العالية البيضاء وباسوارها الضخمة كانها « شرف » كبير من الدنتلا المزركشة ، وما هي الا ساعات حتى وطأت اقدامهم رياض سوريا الجميلة المخملية ولما عرف الاهاون بقدوم هذه القبائل الخيفة ارتاعوا في منازلهم واخذوا الاخشيد عامل ملك مصر بالاستعداد للدفاع عن حلب الشهباء التي امتلأت من اهل القرى الذين هربوا امام الامير سيف ورجاله فكنت ترى جماهير عديدة منهم تصل الى ابواب المدينة وتقع صرعى من الخوف والتعب فيأمر الاخشيد ذو القلب الحجري بحرق الجثث فكنت ترى عند المساء محرقة من

البشر لاشبيه لها في التاريخ يتصاعد دخانها الاسود مغطياً السماء
وكاسفاً النجوم ، فترى الامهات من اعالي الاسوار اطفالهن
يحترقون كأنهم مقدمة للخائق

انما المحرر الاعظم الامير الجميل كان يتقدم بسرعة ، وكانت
جيوشه قد ازدادت ازدياداً عظيماً مما انضم اليها من القبائل
والاهلين الذين سئموا حكم الاخشيد الظالم وقد افتتوا بجمال
الامير الفتى وبطولة رجائه الذين قطعوا الصحراء الجافة بكل
صبر وشجاعة

وهكذا وصل الامير سيف على رأس رجاله على ابواب
حلب ، فتزاور في الارض الخضراء الضاحكة الملائى من العصافير
المفردة ، والتي يسير في وسطها نهر قويق العذب بين السنادس
والخمائل .

وترأت للامير المدينة بسطوحها المرمرية وقصورها
الشاهقة وجوامعها المناطحة السماء المحيطة بقلعتها الضخمة
الحمرء التي تشبه تاجاً من الارجوان لهذه المدينة الشهباء
وامر الامير وهو سكران من الفرح بدق الطبول
فخفق قلب الاخشيد في صدره روعة وخوفاً

ومضى الليل والعرب نيام ينتظرون ساعة الطعان ، ولكن
الامير لم ينم وظل ساهراً في خيمته الارجوانية يدير الخطط
لامتلاك المدينة ، ومن حوله قواده يسدون اليه الراء الصائبة

لا متلاك المدينة ، ومن حوله قواده يسدون اليه الاراء الصائبة
ومنهم من قال بوجوب مهاجمة المدينة ليلاً ، ولكن الامير لم
يكن من هذا الرأي وقد قال

– الافضل ان نتعرف الى المكان والا وقعنا في احد
الاشراك ، لنهاجم المدينة في النهار ولنقاتلها في وجه الشمس
العطشى لمراى الدماء ؛ ان الاخشيد ورجاله يرتجفون وراء
الاسوار من الخوف ، وغداً عند مطلع النهار نحيط المدينة من
جميع جهاتها ، وبعد ذلك نجتمع باكثرتنا المطلقة وبسرعة زائدة
امام باب الغرب حيث عرفت ان الحامية قليلة منحطة وندخل
المدينة على ظهور جيادنا كالصواعق فنملاً شوارع حلب رعباً
وعند الصباح ارسل الامير المنادين ينادون تحت الاسوار
هاتفين نلاهلين بالامان والحب ، مؤكدين لهم الامانة واحترام
منازلهم ونسائهم وان ابا الحسن ما جاء اليهم الا ليحررهم من
استعباد الاخشيد ، فمن اراد منهم الانضمام الى العرب فعلى
الرحب والسعة وسيعرف الامير كيف يقدر قدر خدماتهم
وخضوعهم .

ولما سمع الاهلون هتاف المنادين اطمئنوا على انفسهم
وارتاحوا لعودهم وكثيرون منهم اجتازوا الاسوار وجاؤا
للامير يعرضون عليه سيوفهم ورماحهم
وعرف ابوا الحسن منهم مواطن الضعف في عدوه

وحدث ما حدث ، وتحققت خطة الامير كما وضعها اثناء الليل في خيمته الارجوانية فتسلق رجاله الاسوار وتجمعوا على باب الغرب فحطموه ودخلوا المدينة على ظهور جيادهم وهتافهم الحربي يملأ الفضاء ويلقي الذعر ، فهرب الاخشيد ورجاله ولم يبق منهم غير القليل من الذين التجأوا الى القلعة الحمراء فارسل الامير من يؤمنهم على حياتهم اذا استسلموا دون دفاع ، فرفضوا ذلك عن كبر وعزة نفس

فعمز الامير على الاقتصاص منهم بالقوة وتركهم اياماً ضمن القلعة دون ان يهاجمهم ولكنهم وجدوا اخيراً ان لا مندوحة من الخروج قوة واقتداراً فتلقاهم الفرسان بالرمح والسيوف حتى افنوهم عن بكرة اييهم .

وقد اعجب الامير ببسائتهم وامر بدفنهم بكل حفاوة وشرف .

وقام ابو الحسن بوعدده فاحترم المنازل والنساء ولم ينهب رجاله غير قصور الاخشيد ودعائه

وكان بعضهم قد سطا على البيوت الآمنة فجازاهم الامير دون رحمة ولا شفقة ، وقد قال لرجاله :

— اريد ان اكون السيد المطاع ، فانا لم آت الى هنا كفاتح ظالم بل كامير كريم . لقد وعدتكم بمملكة جميلة ، وها اننا قد امتلكنها اليوم عاصمتها ، ولا تزال امامنا مدن ودساكر

اكافي، الشجعان، واكره الظلم

وعندئذ اقسام ابناء الصحراء رجال الامير الابطال قائلين:

— نقسم بك وبالله ورسوله اننا نتبعك الى اطراف العالم

وليحفظك الله يا اميرنا النبيل الجميل

٣

مررت مروراً فقط فاذا بالفرسان عند مرآي يقعون صرعى على
ارض الصحراء المحرقة (من كتاب الف ليلة وابلة)

ولكن كافور الاخشيد لم ينم على الضيم، بل سعى يجمع

جيوش جديدة لاسترجاع حلب التي طرده الامير منها

وظهرت فرقه ذات صباح حول المدينة وحاصرتها، وتغلبت

مرتين على الامير ورجاله فطردتهم منها ولما كان هؤلاء كانوا

يعيدون الكرة ويرجعون فيدخلون المدينة منتصرين

ولم تقف مطامع سيف بن حمدان عند هذا الحد، فانه

تقدم رويداً رويداً الى داخلية الواحات فامتلك مدن سوريا

المنيعه كحمص والشام وانطاكية وسيس وعينتاب وغيرها

وعندما كان فرسان ابي الحسن يظهرون في مكان لم يكن

الاهلون يحسرون على الدفاع، لانهم يعرفونهم قساة على اعدائهم

كما هم كرماء على اصدقائهم، فيفضلون الاستسلام لهم

وهكذا بقليل من الزمن اصبح الامير سيد البلاد باجمعها
وامتلك كيليكية واخيراً اتسعت ممتلكاته حتى ضفاف الفرات
ودفعت له القوافل التي تمر في اراضيه الجزية ، فكانت
الثروات تزداد يوماً عن آخر في قصور حلب الشهباء ومن
جميع اجناسها من جواهر واطالس حرائر واقشة شامية
فهي كينابيع لا نهاية لها من الخيرات والمجوهرات
والمصطنعات الفنية

وابتني الامير بواسطة الاسرى العديدين على ضفاف نهر قويق
قصرأ عظيماً دعاه بقصر الحلبة فجاء باحذق المهندسين وابرع
البنائين وامهر المصورين ، واكثر الفارشين والنجارين
والمزينين تصوراً وفناً ، يعتنون ببناء وفرش هذا القصر واغدق
عليهم النعم ودعاهم لى حفلاته وولائه وكان يأمر فرسانه
بتقديم التحية لهم عند مرورهم ويسير فرقاً من الجند امامهم
تضرب الطبول ، وامر بان يحترمهم الناس كاحترامهم لاشد
الفرسان شجاعة لانهم وهم من رجال الفنون الجميلة لا يقاومون
مقاماً عن ابطال الحروب وقواد الجيوش

وعندما فتحت ابواب القصر للمرة الاولى كان ذلك
ابهرار للاعين ، فالابواب كانت من [البرونز] النحاسي
نقطة عليها الوف التصاوير المستغربة الجميلة وهي تدور على
قوس الزجاج حتى لا تأتي بحركة ، وبعد ذلك تظهر لك

تضرب الطبول ، وامر بان يحترمهم الناس كاحترامهم لاشد
الفرسان شجاعة لانهم وهم من رجال الفنون الجميلة لا يقاوم
مقاماً عن ابطال الحروب وقواد الجيوش

وعندما فتحت ابواب القصر للمرة الاولى كان ذلك
ابهرار للاعين ، فالابواب كانت من [البرونز] النحاسي
نقشت عليها الوف التصاوير المستغربة الجميلة وهي تدور على
قواعد من الزجاج حتى لا تأتي بحركة ، وبعد ذلك تظهر لك
قاعات متتابعة ملائى بالاعمدة المرمرية المزركشة والموشاة
بالذهب والفضة ، وجعل المصورون رسوم الزهور في اواسط
التيب العالية ، حيث حفروا بين جهة واخرى آبات من القرآن
الشريف باحرف كوفية جميلة وايات لا كبر رجال الشعر
باحرف فارسية فتانة

وكان للقاعة الكبرى خمس قيب بلون الازورد يحملها
١٤٢ عموداً من المرمر المزركش بالفضة والذهب ، تنيرها الوف
من النوافذ الزجاجية الملونة وفي وسط كل عمود خرجت اوان
ملاى من النباتات النادرة ، وفي الوسط افريز عظيم من
الحشب الابنوس الموشى بالذهب جعل خصيصاً لجلوس الامير
ورجاله الاخصاء وحفر عليه رسم الامير منتصراً على الصحراء .
وفي البحيرات التي اغتسلت فيها الطيور المطهرة كانت
المياه المجلدة تبرد هو جاء الصيف ، وفي كل مكان غطت

السجادات العظيمة الارجوان والرخام في الارض وسترت
ستائر عظيمة من الارجوان المزركش الابواب ، وقامت
موائد من العاج في وسط القاعات ومن حولها القاعات ومن
حولها مقاعد من الدمقس الغالي
وفي كل زاوية قامت محرقة عالية للبخور والنطيب فكان
دخانها يعطر الهواء

وجالست في داخل الجدران وراء حاجز شفاف جوقات
الموسيقيين تعزف بالناي والعود والقيثارة فيسمع اهل القصر
اجمل الموسيقىات والالغاني ، وتدخل على انغامها الى القاعات
من ابواب سرية اسراب من الحوريات العاريات الفائقات
الجمال فيرقصن رقصات تجلب اللعاب الى الفم وترجع الشيخ
الى صباه

وفد جعل الحرم فسيحاً ومتسعاً لسكنى ثلاثمائة امرأة
وان الحمام فقد كان آية في الفن والذوق وكانت المياه
تتدفق فيه من فم اثنتي عشره سمكة من الذهب الابرز
وجعلت الاسطبلات ذات المنافع الرخامية للاف
جواد وجواد

وقد احاطت بالقصر حدائق غناء ورياض زاهرة نبت
فيها الياسمين والزنبق والورود والزرجس والموتيسر
وسارت في ممشيها الاطيار الداجنة النادرة المثل التي جاء

كان العلماء والشعراء يتلقون العلم ، وانشأ المارستانات للمرضى
يديرها كبار الاطباء

وكان في وسط هذه الفخفخة ، وبانحاء الاعياد الراقصة
والحفلات الساهرة ، لا ينسى وهو يستريح من غزواته الظافرة
خدمه الامناء فجميع الذين ماشوه منذ الساعة الاولى
كانوا بالقرب منه يحملون اكبر الاقاب ويتسلمون اعظم الوظائف
وكم كان جميلاً وعظيماً ومحبوباً بين هذه الحاشية المنتقاة
كندجا الرفيق السابق ، والامير انطليق اليوم قائده المفضل ،
وكالصياد وزيره ، وابي تغلب ابن عمه ، وكرغويه امير حلب
واني القاسم ياوره وحاسم قاضي حلب ، وحسين ومبارك حاملي
سيفه ، وبصره السكوت حامل لوائه ، وقواد كتائبه كقمر
وفيروز وعبيد وجان شاه وصواب وجعفر وابي بن طاب وابن
ايوب وغيرهم ممن اشتهروا بين العرب بالشجاعة والبأس
وليس في العالمين حرم جمع آيات الجمال وحوريات الجنان
من اتصفن بالملاحة الفتانة ، والقُدود الرشيقة والاقدام الدقيقة
والمدورات السابية من صبيحة لدليله لزيب لابريزه لزاھية
لصليحة وغيرهن اللواتي كن طاقة من البراعيم الحية لازهار
ساحرة فاتنة مسكرة

ولم يكن في العالم ندوة كندوة علمائه وسفرائه ممن
ملكوا ناصية الادب كما تمتلك الجميلة قلب الشاعر وعلى قمة

هؤلاء، جلس المتنبي أشهر الشعراء الذين تعاقبوا على الأعراب منذ الجاهلية حتى اليوم . ومن بعده الزاهي وأبو بكر وعبد العزيز وعثمان سعيد وابن لبانة الفيلاسوف الكبير ، وابن خلويته الفارسي واضع علم البيان ، وأبو فرج النقاد المكنى بالبغواء والقارابي الفيلاسوف وغيرهم وغيرهم من أمراء الكلام الذين ازدهى عصرهم بأدبهم وفاخر بهم أميرهم ملوك الأرض وكانوا ينشدونه قصائد خالدة تشبه كل واحدة منها اليبادة بكاملها ، جاءت فيها وقائع غرامه وحوادث هيامه ومعارك غزواته وإبهة جلاله

والجميع من عساكر وقواد وحكام وشعراء وعلماء وفلاسفة يعيشون في بخبوحة من العيش ، وقد انعم عليهم الأمير بالعطايا والهدايا فكان معهم أكرم من حاتم

وأذنت سمعة الأمير أبي الحسن ترداد يوماً عن آخر ، وقد ذاع صيت أعماله في الخافقين ، ولم يكن أحد يجسر على مناواته والطمع ببلادته ، وخافه الخليفة نفسه وهو عارف أن أبا الحسن درع متين لمملكته ، لذلك كنت تراه يراعى خاطرته ويعامله معاملة الند للند

ويوماً وقد جلس الأمير على عرشه في قصر الحلبة ، والغانيات عاريات يرقصن أمامه والمغنون ينشدون أطيب الأناشيد ، والشعراء يلقون أبلغ القصائد ، دخل عليه قائده

وكانت سمعة الامير ابي الحسن ترداد يوماً عن آخر ،
وقد ذاع صيت اعماله في الخافقين ، ولم يكن احد يجسر على
مناواته والطمع ببلادته ، وخافه الخليفة نفسه وهو عارف ان
ابا الحسن درع متين لمملكته ، لذلك كنت تراه يراعى خاطره
ويعامله معاملة الند للند

ويوماً وقد جلس الامير على عرشه في قصر الحلبية ،
والغانيات عاربات يرقصن امامه والمغنون ينشدون اطيب
الاناشيد ، والشعراء يلقون ابلغ القصائد ، دخل عليه قائده
عبيد ، فقطب ابو الحسن حاجبيه و اشار لعبيد بالانسحاب
لكي لا يزعجه وهو في انسه ، ولكن عبيد لم يطع امر مولاه
وتقدم منه واسر اليه بقوله :

« يا اميري ان في بابك رجلاً وراءه حاشية عديدة وهو
رسول امير المؤمنين يحمل اليك سلامه »

فاجاب الامير بعد اكرامه ، ضع مائة عبد في خدمته
ياخذونه الى الحمام كي يستريح من تعبته ، وبعد ذلك ادخله علي

فاجاب عبيد بالسمع والطاعة واخذ الامير يستعد لاستقبال
ضيفه ، فامر بفرش اجمل سجاجيد بخارى ورش العطر عليها
وامر باستحضار اطيب الفاكهة والذ المربيات واعتقل سيفه
المرصع بالجواهر والبس عمامته الموشاة بالذهب حيث كانت
الماسه كالجوزة تشع في وسطها ورتدى طيلسانه الارجواني

